

التعايش في بلدان الربيع العربي ما بعد الثورات

مقاربة سوسيولوجية بين دستور المدينة والعقد الاجتماعي

محمد سليمان الفارس¹

Özet

Ordu tarafından yönetilen ülkelerde bireyler ve toplumlar için özgürlük elde etmeyi amaçlayan arap baharı devrimleri, zorbalığın toplumların özelliklerini bozduğunu, toplumun bileşiminin aynı olmadığını ancak aralarındaki anlaşmazlığın bazen uyumsuzluğa yol açabileceğini ve toplumun farklı bileşenleri arasındaki sosyal ilişkiler otoriter bir çevreye ve bu toplumların ve bileşenlerin uyacağı bir ideal örneğe ihtiyacının olduğunu açıkça belirtti. Aralarındaki iç ilişkiyi yeniden düzenlemeye yönelik bir araç olarak, haklara ve gizliliğe saygı duyan ve başkalarını dışlayan sabit bir modelle çevrelemeyen açık temeller üzerinde çok tanrıcı olmalarına izin verecek şekilde ve bu hedefi gerçekleştirmede katkıda bulunmanın entellektüel bir yolu olarak - toplum yapıları arasında güvenin tekrar inşa edilmesi - burada fransız filozof Jean-jacques Rousseau' nun (sosyal anlaşmalar) adlı kitabında yazdığı; fransız devriminden önceki fransız toplumundaki olağanüstü sorunlardan kurtulma girişimi olarak burada durmaya çalışacağız.

Resulullah sallallahu aleyhi vesellem' in müslümanlar (muhacirler ve ensarlar), yahudiler ve hıristiyanlar arasında yazdığı medine vesikası üzerinde durmaya çalışacağız.

Bu, çok dinli bir yapı (müslümanlar, yahudiler, hıristiyanlar) ve farklı kabilelerden entellektüel insanlar ile şehir ve kırsal kesimdeki insanlar için bir model oluşturmaktadır.

Burada bu çalışmada başkaların bilgeliğinden ve deneyimlerinden ve peygamberin kaynağından almaya çalışacağız.

مقدمة

أوضحت ثورات الربيع العربي التي ترزوا لتحقيق الحرية للأفراد والجماعات، في بلدان كان يحكمها العسكر؛ أن الاستبداد قد شوه خصوصيات الجماعات، وأن تركيبة المجتمع ليست واحدة بل قد يصل الخلاف بينها أحياناً إلى حد التنافر، وأن العلاقات الاجتماعية بين مكونات المجتمع المختلفة بحاجة إلى إطار مرجعي أو نموذج مثالي تقندي به هذه الجماعات والمكونات، كأداة تنظيم للعلاقة الداخلية بينها من

¹ - Doç.Dr.Mohamed Alfares, Edebiyat Fakültesi, sosyoloji bölümü, Mardin Artuklu Üniversitesi.

جديد، بشكل يتيح لها العيش المشترك على أسس واضحة تحترم الحقوق والخصوصية ولا تُقيدها بقالب ثابت يُقصي الآخرين.

وكمحاولة فكرية لإيجاد طريقة تساهم في تحقيق هذا الهدف-إعادة بناء الثقة بين بنيات المجتمع- فسوف نحاول الوقوف هنا على أول وثيقة مكتوبة تنظم علاقة أهل البلد الواحد فيما بينهم للعيش المشترك، وبناء المجتمع؛ وهي وثيقة المدينة التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين (مهاجرين وأنصار) وبينهم وبين اليهود والنصارى. وهذه الوثيقة تُشكل نموذج لمجتمع متعدد التركيب الديني (مسلمين، يهود، نصارى) والفكري أبناء القبائل المختلفة وأبناء المدن والأرياف.

والتطرق لما كتبه الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو في كتابه (العقد الاجتماعي)؛ حيث حاول فيه تقديم توجهات فكرية للخروج من المشكلات العالقة في المجتمع الفرنسي قبيل الثورة الفرنسية.

وهنا في هذه الدراسة نحاول أن نأخذ من حكمة وتجربة الآخرين، بالإضافة لمراعاة خصوصية مجتمعاتنا وتميزها عن غيرها هي من يجعلنا نجمع بين الوثيقة والعقد الاجتماعي.

لقد ركز رواد نظرية العقد الاجتماعي على أن بناء الدولة يُؤسس أصلاً على وجود مجموعة من الناس أو الجماعات التي يوجد بينها تنظيم اجتماعي مُعين، يستند إلى الشرعية، ووجود التزام مُتبادل بين الحكام والمحكومين، في حين أن ذلك لا يتم إلا في إطار الرغبة المشتركة بين أفراد الجماعات في التعايش سوياً، بالشكل الذي يجعلهم يشعرون بالانتماء للدولة من أجل حمايتهم ونيل حقوقهم وإشباع حاجاتهم المختلفة. "وهناك يتفق الناس بعقد اجتماعي على إقامة مجتمع يرضى به الجميع، فيقيمون بذلك حكومة تمنح الجميع ذات الحقوق، فتقوم سيادة الشعب مقام سيادة الملك، ويتساوى فيها الناس وتُنظَّم الثروة والتربية".²

ومن المقطوع به -كما سبق- أن الإنسان بمفرده بل حتى الزهط من الناس والجماعة المحدودة من القوم لا تستطيع بهذه الوسائل الانفراد بتحقيق هذه المقاصد. ومنه يتبين حاجة الناس إلى الاجتماع والتآزر، فذلك ما تقتضيه الفطرة، ويتطلبه الدين، وتتنظم به الشؤون، وتسنّج به العلوم

فقد ذهب الفارابي إلى أن الإنسان مدني بجبلته وأن هذه المدنية لا تكون لها كينونة إلا ب(الاجتماع البشري)، ذلك أن الإنسان لا يبلغ مبلغ الكمال والسعادة في الحال والمآل (الدنيا والآخرة) إلا بالتعاون مع أناس آخرين، فيقول في هذا الصدد: (وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكن أن يقوم بها كلها وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم

² - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ترجمة عادل زعير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013. ص 15.

بشيء مما يحتاج إليه، فلذلك لا يمكن أن يكون للإنسان الكمال الذي لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية إلا
باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في أن يبلغ الكمال)³.

والتعايش لا يعني فقط تعايش المسلمين مع غيرهم من شرائع أخرى، بل التحدي الآن الذي أفرزته ثورات
الربيع العربي هو التعايش بين أبناء البلد الواحد؛ فالفروق الثقافية والايديولوجيات السياسية والقومية تفرض
ايجاد تعايش بين أوجه التنوع هذه. لقد أقام الإسلام التَّعاون بين المسلمين على أساس مُحْكَم، ومدَّ له في
كلِّ ناحية من نواحي الحياة بسببٍ. فالتَّمثيل القرآني لأهل الإيمان أنَّهم كالبنيان المرصوص، فالمجتمع
بنيان شامخ لا يقوم ولا يثبت إلا حين تتراص لبناته، وتتضامن مبانيه؛ لتسدَّ كلُّ لبنة ثغرتها. وأعمال البناء
هذه بأنواعها لا تقام ولا تشاد إلا بوسائلها: من صحة الفكر، وسلامة البدن، وسعة ذات اليد. ولهذه
الوسائل أدواتها: من التَّفَقُّه في الدِّين، والإجادة في العمل؛ من زراعة وصناعة وحرف، وإتقان في العلوم
والمعارف؛ والقدرة على تقبل الآخر والتعاون معه فيما هو نافع .

مفاهيم أساسية:

التعايش: إن التعايش كنموذج للحياة الاجتماعية لا يقتصر على التساكن بجوار بعضنا البعض، ولكن
العلاقات داخل الحيز الذي نعيش فيه، فالتعايش بين مختلف الأعراق والجماعات الدينية والعشائر
والقبائل وطيف من الهويات هو التحدي الكبير للفترة الحالية، كما أن التعايش بين الشعوب أصبح ضرورة
ملحة في المرحلة المقبلة من تطور الحضارة .

إن العيش المشترك، وقبول الاختلاف، وجعل المجتمع مكاناً آمناً له؛ سوف يكون أحد أهم التحديات
الكبرى لفترة ما بعد الثورات.

فالتعايش هو المصطلح الذي تم استخدامه بسياقات عدة، والسمة الرئيسية في تعريف كلمة «التعايش»
هو علاقتها بكلمة «الآخرين» والاعتراف بأن «الآخرين» موجودون.

التعايش على وزن تفاعل يعني: " تعلم العيش المشترك، والقبول بالتنوع، بما يضمن وجود علاقة إيجابية
مع الآخر، فلقد عرِّفت هوياتنا العلاقة مع الآخر، فعندما تكون العلاقات إيجابية وعلى قدم المساواة معه،
فإن ذلك سوف يعزز الكرامة والحرية والاستقلال وتماسك المجتمع، وعندما تكون العلاقات سلبية فإنها
سنتقوض الكرامة الإنسانية وقيمتنا الذاتية، وتدمر البنية المجتمعية"⁴. وهذا ينطبق على الفرد والجماعة

³ - الفارابي : المدينة الفاضلة ، إعداد د. علي عبد الواحد وافي ، 1393 هـ / 1973 م ، ملتزم الطبع والنشر دار الكتب للطبع

والنشر ، ص 71

⁴ - ما هو التعايش، كومار ريسنكة ، ترجمة: ذاكر آل حبييل، شبكة فلسطين للحوار :

<https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=847640>

والعلاقات بين الدول، فبعد أن شهدنا الصراعات الداخلية والكيـد للآخر، صارت مسألة تعزيز التعايش على جميع المستويات أمراً ملحاً لما بعد الثورات.

واحد من المفاهيم الأساسية في تاريخ الثقافة الغربية عموماً، والفلسفة الحديثة على وجه الخصوص، هو أن الشرعية الفعلية للوجود المفترض مع صفاتها المحددة موجودة فقط عندما تعترف بها ذاتية أخرى، فالعقل الأوربي لا يعرف الوجود إلا من خلال النفي (الآخر)⁵ فالمطلوب هو الاعتراف المتبادل، كشرط ضروري من أجل الحرية والاستقلال. وهناك أمثلة ممتازة للعديد من أشكال النضال لأجل الاعتراف والتأكيد على الاستقلال في تاريخ الحركات الاجتماعية. ومن الأمثلة المهمة في هذا السياق النضال ضد الاستعباد وضد عبودية الإقطاع معروفة جيداً في التاريخ الأوربي، والنضال ضد الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي، وفي بلدان الربيع العربي حالياً منذ 2011 شباط إلى الآن ما يزال الكفاح ضد الاستبداد، وفتح باب التعاون الطوعي والتنافس الخلاق.

الدستور: إن الدستور بالمعنى العام هو "وثيقة عهد بين مجموع السكان على الكيفية التي تُدار بها الدولة، بمجموعة من القواعد والمبادئ الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها، وكذلك حدود سلطتها إزاء الأفراد والجماعة وفقاً لإجماع شعبي"⁶.

وثيقة المدينة وإرساء قواعد التعايش:

عندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب لنشر الدعوة الإسلامية؛ بعد أن ضيق أهل مكة الحصار عليه وعلى أصحابه، وجد يثرب الوجهة الأنسب. وحين وصل هناك قام بعدة إجراءات على مستوى المجتمع الجديد، قام بتغيير اسمها إلى «المدينة» واجتمع بالقبائل بكل اختلافاتها الاثنية والثقافية والاجتماعية واتفق معهم على وضع وثيقة تنظم طريقة تعايشهم في مجتمع واحد يجد كل فرد منهم دوره فيه، وتمثل هذه الوثيقة أول دستور مدني في التاريخ، بها حرية للمعتقد والعدالة والأمان والشعور بالمواطنة، وبتكوين الدولة، وتحتوي على اثنين وخمسين بنداً، يختص خمسة وعشرون منها بأمر المسلمين، وسبعة وعشرون بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى.

اعتبر المؤرخون والمستشرقون دستور المدينة، مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومعلماً من معالم مجدها، ويهدف إلى تحسين العلاقات بين مختلف الطوائف والجماعات⁷.

⁵ - د. علي ليلي، تفاعل الحضارات، القاهرة، جامعة عين شمس، 2006، ص 74.

⁶ - محمود عثمان رزق، دستور المدينة أول دستور مكتوب أسس دولة في التاريخ، مقال صحيفة سودان نايل الالكترونية السودانية، نشر بتاريخ 23 تموز 2012.

⁷ - Michael Licker, The constitution of medina Muhammad's first legal document, the Darwin press, Inc, Princeton, new jersey, 2004. S 3.

يقول غوستاف لوبون: وإن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثنى صفات الإنسان ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة، والسهولة العجيبة التي ينتشر بها القرآن في العالم، وبلغ عدد أشياع النبي ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة لا فاتحين، كـبعض أجزاء الصين وأفريقيا الوسطى وروسية، وتم اعتناق هذه الملايين للإسلام طوعاً، لا كرهاً، ولم يُسمع أن الضرورة قضت بإرسال جيوش مع هؤلاء التجار العرب المسلمين لمساعدتهم، ويتسع نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء في أي مكان كان.⁸

هذه الصحيفة تدل على أن الإسلام يقبل تأسيس مجتمعٍ سياسي متنوع في دولة واحدة، ونظام حكم واحد على أساس حاجات الناس كلها، يتمتع الجميع فيها بحق المواطنة الكاملة. وحقق النبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذه الصحيفة أهدافاً إنسانية ودينية واجتماعية، وسياسية عظيمة، منها توثيق الصلات بين المسلمين وتحقيق الأمن والاستقرار، كما ساهمت في تذيب العصبية والنزاعات الجاهلية، وتحقيق الوحدة بين جميع سكان يثرب.

أهم البنود في الوثيقة:

هذا كتاب من محمد النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربتهم يتعاقلون بينهم.

وبنو ساعدة على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة يفدون عانيهم⁹ بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارث على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو جشم على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

⁸ - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، 2012، ص (٢٦)

⁹ - العاني: الأسير

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا¹⁰ بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه.

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة¹¹ ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولدٌ أحدهم.

ولا يُقتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر.

ولا يُنصر كافرًا على مؤمنٍ.

وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم.

وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

وإن سلّم المؤمنين واحدة، لا يسأل مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدلٍ بينهم.

وإن كل غازيةٍ غزت معنا يعقب بعضها بعضًا.

وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

¹⁰ - المُفْرَح المقتل بالدين والكثير العيال.

¹¹ - الدسيعة: العظيمة

وإنه لا يجبر مشركاً ما لا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمنٍ.

وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قودٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه.

وإنه لا يحل لمؤمنٍ أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُخَدِّثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدلٌ.

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يهود بني عوف أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ¹² إلا نفسه وأهل بيته.

وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

وإن جفنة بطنٍ من ثعلبة كأنفسهم.

وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف.

وإن البر دون الإثم.

وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

وإن بطانة يهود كأنفسهم.

وإنه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم.

¹² - يوتغ: يهلك

وإنه لا ينحجز على ثأر جرح.

وإنه من فَنَّاكَ فبنفسه فَنَّاكَ وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبرّ هذا.

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.

وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

وإنه لم يَأْثَمْ امرؤٌ بحليفه.

وإن النصر للمظلوم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

وإنه لا تُجَارُ حرمة إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإنه لا تُجَارُ قريش ولا من نصرها.

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم

على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه

الصحيفة¹³ وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه.

وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

¹³ - قال ابن هشام: ويقال "مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة".

وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم.

وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم.

وإن الله جار لمن بر واتفق، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم¹⁴.

هذا نص الوثيقة كما عند ابن إسحاق، وقد ذكر نص هذه الوثيقة ابن زنجويه في كتابه الأموال بمثل ما ذكرها ابن إسحاق، مع بعض الخلافات في بعض الكلمات.¹⁵

رواية الوثيقة تامة:

رواها ابن إسحاق بغير إسناد¹⁶. ورواها البيهقي في سننه الكبرى من طريق ابن إسحاق، قال: حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق، قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- هذا الكتاب. فلعل طريق البيهقي هي الطريق التي أخذ ابن إسحاق الحديث عنها¹⁷.

تاريخ كتابة الوثيقة

يقول الدكتور أكرم ضياء العمري: "الراجح أن الوثيقة في الأصل وثيقتان ثم جمع المؤرخون بينهما، إحداهما تتناول موادة الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود، والثانية توضح التزامات المسلمين من مهاجرين وأنصار وحقوقهم وواجباتهم، ويترجح عندي أن وثيقة موادة اليهود كتبت قبل موقعة بدر الكبرى، أما الوثيقة بين المهاجرين والأنصار فكتبت بعد بدر، فقد صرحت المصادر بأن موادة اليهود تمت أول قديم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة...، أما الوثيقة بين المهاجرين والأنصار فقد كتبت بعد وثيقة موادة اليهود في السنة الثانية من الهجرة"¹⁸.

لهذه الوثيقة دلالات هامة تتعلق بمختلف الأحكام التنظيمية للمجتمع الإسلامي . ونلخصها فيما يلي :

1 - إن كلمة (الدستور) هي أقرب إطلاق مناسب في اصطلاح العصر الحديث على هذه الوثيقة . وهي إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أي دستور حديث يعني بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة في الداخل والخارج ؛ أي فيما يتعلق بعلاقة أفراد الدولة بعضهم مع بعض، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين. وحسبنا هذا الدستور الذي وضعه رسول الله مع بوحى من

¹⁴ - عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، ط2، (مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1375هـ/1955م)، (1: 501-504).

¹⁵ - حميد بن مخلد بن زنجويه، الأموال، ط1، السعودية: مركز الملك فيصل، 1986م، ج2، ص 466-470.

¹⁶ - ابن هشام، السيرة النبوية، (1: 501).

¹⁷ - أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، ط3، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م)، (8: 184).

¹⁸ - أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ط6، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، 1415هـ/1994م، ص272.

ربه واستكتبه أصحابه، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود. حسبنا ذلك دليلاً على أن المجتمع الإسلامي قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة، وأن الدولة الإسلامية قامت منذ أول بزوغ فجرها على أتم ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية. وظاهر أن هذه المقومات، أساس لا بد منه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في المجتمع . إذ هي في مجموعها إنما تقوم على فكرة وحدة الأمة الإسلامية وما يتعلق بها من البنود التنظيمية الأخرى ، "ولا يمكن أن نجد أرضية يستقر عليها حكم الإسلام وتشريعه مالم يتم هذا التنظيم الدستوري الذي أوجده رسول الله، على إنه في الوقت نفسه جزء من الأحكام الشرعية نفسها. ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية ، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه ، وليس له من مقومات الدولة والتنظيم الدستوري شيء . وهي أحبولة عتيقة ، كان يقصد منها محترفو الغزو الفكري وأرقاء الاستعمار، أن يقيدوا بها الإسلام كي لا ينطلق فيعمل عمله في المجتمعات الإسلامية ولا يصبح له شأن قد يتغلب به على المجتمعات المنحرفة الأخرى، إذ الوسيلة إلى ذلك محصورة في أن يكون الإسلام ديناً لا دولة، وعبادات مجردة ، لا تشريعاً وقوانين . وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة في الواقع ، فينبغي أن ينقلب فيصبح غير صالح لذلك ولو بأكاذيب القول"¹⁹ .

ولكن مهما يكن، فينبغي أن نقول، ونحن بصدد تحليل هذه البنود العظيمة : « إن مولد المجتمع الإسلامي نفسه إنما كان ضمن هيكل متكامل للدولة، وما تنزلت تشريعاته إلا ضمن قوالب من التنظيم الاجتماعي المتناسق من جميع جهاته وأطرافه ،

2- هذه الوثيقة تكون منها تنظيم متكامل لبناء دستوري وإداري عظيم. إن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي مع اليهود ، ولقد كان بالإمكان أن توتي هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين واليهود ، لو لم تتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر والغدر والخديعة ، فما هي إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعاً بما تضمنته بنود هذه الوثيقة التي التزموا بها ، فخرجوا على الرسول والمسلمين بألوان من الغدر والخيانة ، فكان المسلمون بذلك في حل مما التزموا به تجاههم .

3 - دلت هذه الوثيقة على أحكام هامة في الشريعة الإسلامية نذكر منها ما يلي :

أولاً : يدلنا البند الأول منها على أن الإسلام هو وحده الذي يؤلف وحدة المسلمين وهو وحده الذي يجعل منهم أمة واحدة، وعلى أن جميع الفوارق والمميزات فيما بينهم تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة، تفهم هذا جلياً واضحاً من قوله عليه الصلاة والسلام : « المسلمون من قریش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس، وهو أول أساس لا بد منه لإقامة مجمع إسلامي متماسك سليم .

¹⁹ - د. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ، دمشق، دار الفكر، 1991، ص225.

ثانياً : يدلنا البند الثاني والثالث على أن من أهم سمات المجتمع الإسلامي ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين بأجلى صورته وأشكاله ، فهم جميعاً مسؤولون عن بعضهم في شؤون دنياهم وأخرتهم . وإن عامة أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على أساس هذه المسؤولية، وتحدد الطرائق التنفيذية لمبدأ التكافل والتضامن فيما بين المسلمين .

ثالثاً : يدل البند السابع على مدى الدقة في المساواة بين المسلمين لا من حيث أنها شعار براق للزينة والعرض، بل من حيث أنها ركن من الأركان الشرعية الهامة للمجتمع الإسلامي ، يجب تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة ، وحسبك مظهراً لتطبيق هذه المساواة بين المسلمين ما قرره النبي في هذا البند بقوله : « ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أديانهم » ومعنى ذلك "أن ذمة المسلم أياً كان محترمة ، وجواره محفوظ لا ينبغي أن يجار عليه فيه، فحين يُدخِل أحد المسلمين أحداً في جواره ، فليس لغيره حاكماً أو محكوماً أن ينتهك حرمة جواره هذا، والمرأة المسلمة لا تختلف في هذا عن الرجل إطلاقاً، فلها من الحرمة ما لا يستطيع أن ينتهكها أي إنسان مهما علت رتبته وبلغت منزلته، وذلك بإجماع عامة العلماء، وأئمة المذاهب، غير أنه يشترط لذلك شروط معينة ذكرها الفقهاء كأن لا تكون إجارة تُضَر بالمسلمين كإجارة جاسوس، وأن تكون لعدد محصور، وأن تكون لمدة محدودة بحيث لا تزيد على أربعة أشهر). رُوِيَ أن أم هانئ بنت أبي طالب ذهبت إلى رسول الله مع عام الفتح فقالت : يا رسول الله زعم ابن أُمي -علي- أنه قاتل رجلاً أجرته : فلان ابن هبيرة ، فقال رسول الله : قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ²⁰ .

وتستطيع أن تتأمل هذا فتعلم مدى المكانة الرفيعة التي نالتها المرأة في حمى الإسلام وظله، وكيف أنها نالت كل حقوقها الإنسانية والاجتماعية كما نالها الرجل سواء بسواء ، مما لم يحدث نظيره في أمة من الأمم. غير أن المهم أن تعلم الفرق بين هذه المساواة الإنسانية الرائعة التي أرسنها شريعة الإسلام ، والمظاهر التقليدية لها مما ينادي به عشاق المدنية الحديثة اليوم . تلك شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة، يتوخى منها سعادة الناس كلهم نساء ورجالاً، أفراداً وجماعات. وهذه نزوات حيوانية أصيلة يتوخى من ورائها اتخاذ المرأة مادة تسلية ورفاهية للرجل على أوسع نطاق ممكن ، دون أي نظر إلى شيء آخر .

رابعاً : يدلنا البند الثاني عشر على أن الحكم العدل الذي لا يجوز للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره، في سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشؤونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه، وهو ما تضمنه كتاب الله تعالى وسنة رسوله. ومهما بحثوا عن الحلول لمشكلاتهم في غير هذا المصدر فهم آثمون، معرضون أنفسهم للشقاء في الدنيا وعذاب الله تعالى في الآخرة . تلك هي أربعة أحكام انطوت عليها هذه الوثيقة التي أقام عليها رسول الله أول دولة إسلامية في المدينة، وجعلها منهاجاً لسلوك المسلمين في مجتمعهم الجديد، وإن

²⁰ - البوطي، فقه السيرة، 227.

فيها أحكاماً هامة أخرى لا تخفي لدى التأمل والنظر فيها. ومن تطبيق هذه الوثيقة ، والاهتداء بما فيها ، والتمسك بأحكامها، قامت تلك الدولة وذلك المجتمع على أمتن ركن وأقوى أساس، ثم انتشرت قوية راسخة في شرق العالم وغربه تقدم للناس أروع ما عرفته الإنسانية من مظاهر الحضارة والمدنية الصحيحة.

الدروس المستفادة من الوثيقة لتحقيق التعايش

منح حرية اختيار الدين: قَبِلَ الرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام أن يعيش اليهود والنصارى مع المسلمين في داخل المدينة، وأقرّ لهم حقوقاً تحميهم، وتكفل بتطبيقها مثل حق الحياة لهم، فلم يقتل يهودياً أو نصرانياً بسبب ديانتهم، وسمح لهم بحرية اختيار الدين، ولم يُجبرهم على اعتناق الإسلام. قيل إنّه أتى رجل من الأنصار، وله أبناء تنصّروا قبل بعثة الرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام، فدعاهم أباهم للإسلام، ولكنهم رفضوا واختصموا إلى الرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام، فقال الرجل: (يا رسول الله، أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟)، فأنزل الله سبحانه وتعالى تلك الآية: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)²¹.

تحول الطاقة المبعثرة للأفراد إلى بناء متكامل: الشيء الدقيق أن هذا المجتمع في المدينة، تحولت فيه الطاقة المبعثرة للأفراد إلى بناء متكامل يسمو بها جميعاً، ويحقق لها التقدم، والوحدة الإنسانية، وفق المثل العليا الإنسانية، فقد كان التنافر بينهم والمنافسة تبعدهم عن العمل الجماعي الناجح، كل فرقة تسعى لمكاسبها الخاصة والايقاع بغيرها من باب الأنانية وحب الذات.

لذلك يقول الله عز وجل (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) سورة الأحزاب الآية: 21

إصلاح العلاقات بين الأفراد: أساس البناء الاجتماعي هو بناء الفرد الواعي الذي يعرف كيف يتعامل مع الآخرين رغم الاختلاف معهم في قضايا معينة، لن يكون المجتمع قويا إذا كانت العلاقات فيما بين أفرادهم ومؤسساته فاسدة. في الشركة الواحدة تجد محوران، والمجتمع الواحد فيه اتجاهات، لذلك جاء الارشاد الالهي: (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) . يقول عليه الصلاة والسلام:

إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ، لا أقول: حالقة الشعر ولكن أقول: حالقة الدين

ينتهي المجتمع بفساد العلاقة بين الجماعة الواحدة، لذا أول شيء فعله النبي: أصلح ما بين المسلمين، لما نزل على بني عمرو بن عوف، وقد كان بين الأوس والخزرج ما كان من العداوة، الأنصار أوس وخزرج، بينهم عداوة متمكنة في النفوس، كانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس، وكانت الأوس تخاف

²¹ - نزلت في رجل من الأنصار من بني أسلم، انظر تفسير ابن كثير، البقرة، آية 256.

أن تدخل دار الخزرج أول عمل فعله النبي أنه أزال العداوة بين الأوس والخزرج²²، لأن المجتمع المنشق على نفسه ينتهي، إذا كان في بيتك انشقاق انتهى البيت، صار الوقت كله للصراع الداخلي، ليس هناك إنجاز، لا الطالب يتفوق، ولا الفتاة تتفوق، ولا الأب مرتاح، ولا الزوجة مرتاحة، فحيثما حل الشقاق حل التحلف، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: **إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ**.

أنا أرى أن البشر يمكن أن يصنفوا تصنيفين، لا ثالث لهما، تصنيف إنساني وتصنيف عنصري، من هو العنصري؟ هو الذي يرى نفسه متميزاً على من حوله، يحق له ما لا يحق لهم، وهو معنى مما يجب عليهم.

يوم خرج النبي عليه الصلاة والسلام من قباء باتجاه المدينة وقف الأنصار داراً بعد دار، عشيرة بعد عشيرة، يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل بهم فكان يقول لهم: دعوها، أي ناقته، فإنها مأمورة، لو نزل بأي مكان، بأي بيت، بأي عشيرة، بأي قوم ميزهم بلا مرجح، وجعل الطرف الآخر أصغر من هؤلاء الذين نزل عندهم، حتى بركت عند المرید، وفي ذلك احترام للجميع وإصرار على عدم التمييز بينهم، وإذا كان نزوله في دار أبي أيوب الأنصاري فليس في ذلك إحراج أو تمييز، لأن داره أقرب دار لمبرك الناقة²³.

أسس التعايش في المجتمع كما رسول الله :

أولاً: المواطنة: فحينما استقر النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها أسس نظاماً عاماً أساسه التعايش السلمي، وبالمصطلح الحديث فإنه أرسى مبدأ المواطنة، ولا شك أننا -اليوم- في أشد الحاجة إلى هذا المفهوم؛ مفهوم أن تعيش مع الآخر، مفهوم المواطنة، مفهوم قبول الآخر؛ فالنبي -عليه الصلاة والسلام- وجد في المدينة مزيجاً إنسانياً متنوعاً من حيث الدين والعقيدة، وحيث الانتماء القبلي، والعشائري، ومن حيث نمط المعيشة، المهاجرون من قريش، والمسلمون من الأوس والخزرج، والوثنيون من الأوس والخزرج، وقبائل اليهود الثلاثة: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة؛ والأعراب الذين يسكنون أهل يثرب، والموالي، والعبيد، وغيرهم.

مهاجرون، أوس، وخزرج: منهم مسلمون، منهم وثنيون، منهم يهود، قبائل اليهود الثلاثة، أعراب، عبيد، بالمصطلح الحديث: مجتمعٌ فسيفسائيٌّ، كبعض البلاد الإسلامية اليوم، التي يقتتل أهلها، فكيف وفق النبي بين هذه الانتماءات؟ وبين هذه الاتجاهات وتلك الأديان؟ بين المؤمنين بدين؟ وبين الوثنيين؟ بين المؤمنين بدين وهم مشركون؟ وبين الموحدين؟ هذا الذي نحن في أمس الحاجة إليه؛ فالنبي -صلى الله

²² - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دمشق، دار الفكر، 1991، ص 219.

²³ - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دمشق، دار الفكر، 1991، ص 211.

عليه وسلم- قد تعامل مع غير المسلمين من خلال مبدأ السلام والتعايش حتى مع كل من عاداه وآذاه، ومع ذلك فقد غدروا به مراتٍ عديدةً، وشواهد ذلك من السنة والسيرة كثيرة.

فكانت دعوته -صلى الله عليه وسلم- تعتمد السلام منهاجا، والتسامح سلوكا، فقد بدأ دعوته بالحكمة ولم يتخلَّ يوما عن الرفق واللين في القول والعمل، عملا بقول الله -تعالى-: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل: 125]، وبهذا المنهج الوسطي اليسير أسس الإسلام مبدأ التعايش بين جميع الأطياف والمذاهب المختلفة في إطار من المواطنة والعدل والمساواة والدعوة إلى التعارف والتعاون، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: 13] يعني بالطبيعة لا فرق بين انسان عن آخر لا طبقة، ولا مذهب أو...وكل هذه الفروق من صنع الجماعات فهذه دعوة للناس لإعادة تشكيل بنيتها من جديد. وكما قال الامام الشافعي رضي الله عنه :

الناس من حيث التصوير
أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم أصل يفاخ
رون به فالطين والماء

ثانياً: احترام انسانية الإنسان: فالإسلام يتعامل مع جميع طوائف البشر من خلال مبدأ التكريم الإلهي للإنسان، والذي يتمثل في قوله -تعالى-: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [الإسراء: 70]، وقوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) [التين: 4]، وقد مرَّت بالنبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جِنَازَةٌ فَقَامَ؛ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةٌ يَهُودِيٍّ! فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟»²⁴

ثالثاً: الحرية: ومن أبرز معالم التعايش السلمي الحرية؛ فهي من أكبر مظاهر الكرامة الإنسانية والطريق إلى الإيمان الصحيح والمسئولية؛ حيث تركت الشريعة للإنسان حرية الاختيار والمشئنة دون جبر أو إكراه على الدين الحق، قال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) [الكهف: 29]، وقال: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة: 256]؛ وقد شهد بذلك الغرب؛ يقول توماس أرنولد: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قُصد منه استئصال الدين المسيحي"²⁵.

لكن الحرية لوحدتها على الاطلاق قد يستخدمها بعض أفراد المجتمع لهوى نفسي أو مكسب خاص قد يضر أو يفسد في المجتمع لذلك ربطها رسول الله بالمسئولية، أنت حر لكن بحيث لاتضر الآخرين لا

²⁴ - حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه رقم الحديث 1312. ومسلم في صحيحه رقم 961.

²⁵ - توماس أرنولد، الدعوة إلى الاسلام، ص 98-99

تشهير بسمعتهم ولا انتقاص حقهم أو الاعتداء عليهم ، ومن ما جاء على تأييد المسؤولية في الوثيقة: ولا يُنْصَرُ كافرًا على مؤمنٍ، وغيرها. يعني لا نضع أيدينا بأيدي غير أبناء المجتمع لكسب مصلحة أو نفع مهما كان ، فالمجتمع كالأب في الأسرة وأبناؤه إخوة.

رابعاً: العدالة: ومن أهم الأسس أيضا العدالة التي نشرها الإسلام منذ أول لحظة والتي أمر الله -تعالى- بها قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)[النساء: 58]؛ فأمر بالعدل بين الجميع فلم يُقَل: وإذا حكمتم بين المسلمين بل قال: وإذا حكمتم بين الناس؛ ليشمل الجميع.

وفي سبيل تحقيق العدالة بين الجميع نهى الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن ظلم أحد من غير المسلمين، فقال صلى الله عليه وسلم: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (سنن أبي داود)؛ أي إنه يكون خصما لمن يظلم معاهدا أو واحدا من غير المسلمين.

ومن عدالة القضاء ما رُوِيَ من قصة درع علي بن أبي طالب وهو أمير المؤمنين؛ فقد تنازع مع يهودي على درع، فاحتكما إلى القاضي شريح، الذي قال: "يا أمير المؤمنين، هل من بينة؟" قال: "نعم، الحسن ابني يشهد أن الدرع درعي"، قال شريح: "يا أمير المؤمنين، شهادة الابن لا تجوز"، فقال علي: "سبحان الله! رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟"، فقال: "يا أمير المؤمنين، ذلك في الآخرة، أمّا في الدنيا فلا تجوز شهادة الابن لأبيه". فقال علي: "صدقت -الدرع لليهودي". فقال لليهودي: "أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه! أشهد أن هذا الدين على الحق، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين، سقط منك ليلاً". فأهداه أمير المؤمنين الدرع²⁶.

البِرُّ وحُسن العشرة والمعاملة: أمر الله في القرآن الكريم المسلمين ببِرِّ مخالفيهم في الدين، الذين لم يتعرضوا لهم بالأذى والقتال، فقال: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [الممتحنة: 8-9]

قال الطبري: "عنى بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم.. وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) يقول: إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرون من برهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم"²⁷.

²⁶ - (البيهقي في الكبرى)

²⁷ - تفسير الطبري، سورة الممتحنة، آية 8.

العمل الجماعي: من خلال النظر في بنود الوثيقة فإن أكثر ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم : العمل الجماعي وترك الانفراد بالرأي والعمل، مثل قوله في البند: وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه فأكثر البنود هي خطاب للجماعة وليس للفرد. وهذا تأكيد على رأي العامة أو الإرادة العامة التي جاء بها جان جاك روسو في عقده الاجتماعي. ولا يحق للحاكم أو أي شخص أن يتخذ قراراً يخص الجماعة بدون الرجوع إلى مشورة الجماعة. وهذا جعله رسول الله حقيقة في حياته إذ كلما هم بأمر يجمع حوله الصحابة ويستشيرهم ثم يأخذ بالأصلح والأأنفع.

الهوية والانتماء العرقي والتعايش

عندما نبحث عن قرب ، فإن الغالبية الساحقة من الدول القومية في مجتمعنا الشرق أوسطي تكشف عن انقسامات داخلية كبيرة، على أساس العرق والجنس والدين، كما أن نوعية هذه الاختلافات في العملية الاجتماعية والسياسية تختلف على نطاق واسع، وكذلك مدى شدة أهميتها في تسييس الشرائح الاجتماعية، سواء داخل الدول أو فيما بينها، كما أن الافتراض الأساسي بعد انتشار صراعات الهوية والعرقية، لا سيما بعد ثورات الربيع العربي، هو إدراك أن التعددية الثقافية هي سمة دائمة في الحياة السياسية المعاصرة، فالتغير الاجتماعي يميل إلى إنتاج أقوى للهويات الطائفية. هناك بالطبع من المنتقدين الذين يشككون في قيمة ومدى عملية استخدام مفهوم التعايش.

إن المبادرات التي تُوجَّه لوقف الصراع بين المجتمعات المحلية، كانت توجه إلى الإدارة المؤسسية في أعلى مراتب الحكومات وفي يد النخب السياسية. ولأن التحيزات والأحكام المسبقة والتي تنبثق عن السياسات الحزبية تتورط في تلك السياسات المضادة للتعايش، لذلك تأتي تلك المبادرات للتصدي لسياسة خلق مناخ أفضل للتعايش المجتمعي وليكون ضمن الأولويات، على أن يكون الإصلاح المؤسسي في المجتمع من مستوى القاعدة، ومنها يمتد إلى كافة المستويات، كما يجب التداول بشأن احتياجات التعايش السياسي من خلال تنفيذ الضمانات الدستورية، إلى جانب خطوة صنع السياسات فيما يتعلق بالتعايش المجتمعي، فيما يجب أن يتم التمييز بين تشجيع التعايش السياسي والتعايش المجتمعي، لأن التعايش السياسي يتضمن وسائل تطوير نظم الحكم التي يمكن أن تستوعب بشكل أفضل التنوع العرقي والتعددية، وقد يستغرق الأمر البحث أيضاً عن أشكال وأنواع مختلفة من الأنظمة الانتخابية، والتي يمكن أن تستوعب بشكل أفضل حاجات القاعدة (الشعب) في المجتمع، أو يمكن تشكيل لجنة من الخبرات الاجتماعية في السياسة والقانون والاقتصاد وهذه اللجنة تكون وظيفتها فصل النزاع بين الشعب والحاكم، أو بيدها مطلق الصلاحية لعزل الحاكم حينما تراه ابتعد عن وظيفته الرئيسية وابتعد عن الشعب (مثل هيئة أهل الحل والعقد).

غير أن ما يميز التعايش المجتمعي، هو أن مختلف الجماعات في كثير من الأحيان، سواء كانت عرقية أو دينية، والتي تعيش في فضاء العيش المشترك، وبذلك يكون تحديد علاقتهم مع بعضهم البعض، وكيفية إمكانية تطوير هذه العلاقات واستدامتها وتطبيعها هو ما يشكل تحدياً رئيسياً للفترة المقبلة، ولأنه على مستوى المجتمع المحلي التقليدي والذي لا زال يعيش وفق التصور النمطي تجاه بعضه البعض، على أن تكون الأهداف أكبر بكثير من مجرد التركيز على فكرة المساواة في الحقوق الأساسية والفرص لجميع الفئات، بل يكون الهدف هو تشجيع التنوع الثقافي في الوقت نفسه، باعتباره الخيار الأفضل.

وفي تجربة تقييم العلاقات المجتمعية العامة في إيرلندا الشمالية مثلاً يتزايد الاعتراف بمثل هذا العمل (التقييم) مع التركيز على الخلافات، كمثال أن تكون لاهوتية ذات طابع سياسي في بعض الحالات، والتي من المرجح أن تكون محدودة، فسيكون الهدف هو العمل على تسهيل النقاش الحر داخل المجتمعات المحلية، فإذا كان لا يتم مثل هذا العمل داخل المجتمع، والذي غالباً ما يكون بسبب حالة من الخوف والترهيب وعدم وجود هياكل متاحة من خلالها يتم القيام بمثل هذا العمل المشترك وفهمه فإن النتائج سيكون على الأرجح دفاعياً وبالتالي أقل فعالية.²⁸

بناء أساس للتعايش: التعليم

إن محاولة إطلاق سراح الطفل من الحدود العرقية المقيدة، وإعادة توجيه وعيه إلى حقيقة وجود ثقافات ومجتمعات أخرى وأساليب متعددة للتفكير وللحياة، ولأن المقصود هو إعادة توافق الطفل إلى أقصى حد ممكن من أجل أن يتمكن من الخروج إلى العالم وهو خالٍ من التحيز والتحامل، ولديه القدرة والرغبة لاستكشاف العالم بكل تنوعه؛ فإن البلدان العربية عليها الكثير من العمل إيجاد في ظل التنوع .

إن الحق في التعليم هو حق أساس معترف به من قبل جميع البلدان، غير أنه في الحقيقة لا يزال غالبية أطفالنا من دون مرافق تعليم مناسبة، وبناء على ذلك يجب تبني أسس للتعايش قائمة على أن يتمكن كل طفل من الحصول على التعليم والمشاركة في صنع القرارات التي تضمن تعليمه بشكل أفضل، ولأن التعليم والتعلم هما مبدآن ووسيلتان لتعلم العيش المشترك، وهذا يعني أن المدرسة تصبح مؤسسة كبرى لتعليم التعايش متعدد الثقافات، فكيف يمكننا غرس الاحترام والشعور بالحاجة إلى وجود ضرورة التعايش بين أطفال المدارس؟. كما أن عملية التثقيف حول التعايش تحتاج إلى أن تحدث على كل المستويات، من المستوى غير الرسمي بدءاً من كليات المعلمين، والمدارس ذاتها، إلى الجماعات المحلية، والمنظمات

²⁸ - ما هو التعايش، كومان رسنكة، ترجمة: ذاكر آل حبيب، شبكة فلسطين للحوار:

<https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=847640>

غير الحكومية إلى وسائل الإعلام والشركات، وجميع الوسائل غير الرسمية بما في ذلك الأسر والمشاهير والكتاب والشعراء.

الحاجة إلى وجود تحول في السياسة

الصراع موجود على جميع مستويات السلوك البشري ولكن هذا لا ينعكس دائماً كعامل محدد في صنع السياسات، فتضارب وجهات النظر يؤكد على ضرورة شرعية حقيقة وجود الحاجة إلى وسائل العيش المشترك، والذي لا بد من إيجادها على الرغم من هذه الخلافات. ففي حين ينخرط العديد من الناس في عمل التعايش، فإنه ليس بالضرورة أن تنعكس هذه المبادرات دائماً على مستوى السياسة العامة. الساسة والحكومات وقادة الرأي يجب أن يقبلوا بأن يكون التعايش هدفاً مشروعاً لأنهم بحسب نظرية العقد هم مكلفون بوظائف من الشعب ليجتثوا عن أفضل مصالحه. ثم إن التعايش لا يتطلب حلول وقوالب جامدة، فعلى مستوى السياسة فإن التشريع الإسلامي ترك شكل نظام الحكم وكيفية اختيار الحاكم للشعب فهو أمر دنيوي، لم يحدده بشكل معين ولا بشروط معينة، بل هو حسب ظروف المجتمع، إذ تتفق الناس على الشكل الأنسب والشخص الأفضل وتحديد مدة حكمه وطريقة عزله. هذا من أساسيات التعايش.

إن التعايش هو سلوك مكتسب، وكل مكتسب قابل للتعديل، وتعلم العيش المشترك لا يأتي من خارج المجتمع وهو ما يتطلب عملية مستمرة من التعلم في المدرسة وعلى حد سواء داخل المجتمع ككل إلى ادخال البرامج من خلال البلديات والهيئات الحكومية المحلية، ولأن هذه المؤسسات هي في الخط الأمامي للعمل من أجل التعايش، كما أنها تقع في الأماكن التي يعيش العديد من المجتمعات المحلية فيها معاً، وهناك الكثير من الأعمال التي يمكن القيام بها والتي يمكن أن تتراوح بين توفير الموارد لدعم المراكز الاجتماعية حيث يمكن أن تأتي جميع الطوائف للتعلم واللعب، ويمكن أن تكون في تقديم الألعاب وتشجيع الرياضة بين مختلف الطوائف، كما يمكن أن تكون هناك برامج لتعلم اللغات الأخرى، وتشجيع اللقاءات بين الطوائف، لمعرفة تاريخ الآخرين، كما يجب على البلديات والهيئات الحكومية المحلية والهيئات المنتخبة ديمقراطياً أيضاً، والتي لديها السلطة والموارد اللازمة، بأن تسعى لتقديم الدعم الفني للعمل في بناء التعايش المجتمعي.

*استنتاج

وما يجب أن نقوله: هو أن التعايش السياسي لكي يكون ناجحاً يتطلب الاستثمار في التعايش على مستوى المجتمع المحلي، وفي ديننا الحنيف أسس رسول الله واقعاً للتعايش وليس خيالاً ولا صورة قابلة للتأويل، بل نموذج حقيقي واقعي بعد هجرته للمدينة، ودعا لقبول الاختلاف الذي يبني مجتمعا متنوعاً من خلال التعاون والأخوة، فلا يمكن للمجتمع أن ينجح إلا إذا كاب بين عناصره(جماعاته) رابطة تدعوا

للتعاون والتكافل كما هي رابطة الأخوة التي هي أقرب رابطة بين المواطنين، إذ أول ما فعله بعد بناء المسجد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

العقد الاجتماعي عند روسو ومن سبقوه:

تعد نظرية العقد الاجتماعي للفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو من النظريات السياسية والاجتماعية المهمة في تاريخ الفكر السياسي الأوربي والتي مثلت تطورا كبيرا في فهم العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

كان كتاب جان جاك روسو العقد الاجتماعي الذي صدر في نيسان 1762 يعد بحق أقوى المؤلفات السياسية والذي خصصه لأفكاره في الدولة والسلطة والحق الطبيعي . عالج هذا الكتاب موضوعات مختلفة أهمها حياة الفطرة والعقد الاجتماعي والسياسة من جهة أصلها وأوصافها وحدودها والحكومات وأشكالها والادارة العامة.

يفتح (روسو) كتابه بمقولته الشهيرة ولد الانسان حراً إلا أنه مكبل في كل مكان بالأغلال، على ذلك النحو يتصور نفسه سيد الآخرين الذي لا يعدو أن يكون اكثرهم عبودية وقصده من ذلك أن تاريخ الانسان ينقسم الى مرحلتين مرحلة سابقة على وجود الحكومة ومرحلة لاحقة بها ، ففي المرحلة الأولى كان الناس يجتمعون في حالتهم الطبيعية (بدون دولة وبدون ملكية خاصة ، كانت الملكية مشاعية عامة للجميع) ؛ غير مقيدين بقوانين ولا ملكية ، ولا يخضعون لغير أحكام القانون الطبيعي المنبث في نفس كل انسان منهم بمقتضى الفطرة . ولكن الانسان اضطر الى الخروج من هذه الحالة الطبيعية واتفق مع باقي جنسه على ايجاد نظام اجتماعي؛ يخضع فيه كل فرد الى حكم المجموع مقابل قيام المجموع بحمايته وتنازل فيه عن حريته الطبيعية بمقابل تمتعه بالأمن المكفول له من بني جنسه، وبذلك أُبدل القانون الطبيعي بقوانين بشرية وأصبح على الأفراد واجبات للمجتمع ، ولهم قبله حقوق وهذا الاتفاق يشبه التعاقد ومضمونه مبادلة واجبات بمزايا .

وأن هذا الالتزام الاجتماعي والخضوع للسلطة لا يمكن أن يكون أساسه القوة . إذ أن تأسيس السلطة على ذلك يعني إنكار فكرة الحق كليا، وكذلك لا يمكن أن يستند الالتزام الاجتماعي إلى فكرة السلطة الطبيعية للأب أو لأي رئيس يزعم أنه يقوم بسلطته الطبيعية . فالأسرة وهي اقدم الجماعات البشرية إرادية اتفاقية ذلك أن الأبناء لا يرتبطون بأبيهم إلا لزمان محدود بحاجتهم اليه في المحافظة عليهم ورعايتهم، وما أن تزول هذه الحاجة حتى ينحل ذلك الرباط الطبيعي ويُعفى الأبناء من واجب الطاعة نحو ابائهم كما يعفى الآباء من التزام الحماية والرعاية لهم، ويسترد هؤلاء حريتهم الطبيعية فاذا بقيت الأسرة قائمة واستمرت الرابطة بين الآباء والأبناء فلن يكون ذلك إلا نتيجة لاتفاق حر ورغبة مشتركة في الابقاء على الأسرة لأنها لا تبقى أسرة إلا بالتعاقد .

وكذلك كل جماعة سياسية لا يمكن تصور وجودها الا باتفاق الأفراد فيما بينهم على الحياة في الجماعة ، وهذا الاتفاق او العقد الاجتماعي لن يكون سليماً ومشروعاً إلا إذا صدر عن إجماع الإرادات الحرة للأفراد المكونين للجماعة، وأن هذا العقد لا يستمد قوته من رضا الأفراد فقط، بل تتوقف صحته أيضاً على طريقة استعماله، والغاية التي يهدف الى تحقيقها، فلن يكون صحيحاً ما لم يحقق حياة أفضل من حياة العزلة التي تسودها الحرية والمساواة ، وليس حياة الفطرة بنظر روسو هي أسعد حالة للحياة البشرية بل العكس لأن الجماعة هي وحدها التي ترتقي بالإنسان وبمعنوياته وترتفع بتفكيره ومشاعره، وتحل العدالة والفضيلة مكان الغرائز والشهوات وتحكم العقل بالتصرفات.

اختلف روسو مع كل من (توماس هوبز) في مسألة العقد الاجتماعي وتحديد أطرافه وتعيين اهدافه ، وعلى خلاف هوبز الذي يرى أن العقد الاجتماعي ما هو إلا اتفاق الافراد فيما بينهم على اقامة السلطة، أي أن روسو اتفق مع هوبز في أن الحاكم ليس طرفاً في العقد، فهما يختلفان من حيث أن هوبز يضمن العقد اجتماعي مجموعة عقود بعدد الأفراد المكونين للجماعة، يلتزم فيها كل منهم قبل الأفراد الآخرين، بينما روسو يحسب أن طرفي العقد هم الأفراد الطبيعيون من ناحية ومجموع الأفراد أعضاء الجماعة السياسية من ناحية ثانية (كجماعة الحل والعقد في الاسلام)، أي أن روسو يتخيل الجماعة السياسية كما لو كانت قد تكونت بالفعل ويدخلها طرفاً في العقد والأفراد الطبيعيين طرفاً آخر. ويرى روسو أن على الأفراد في العقد الاجتماعي أن ينزلون كلية (يتخلون) ودون تحفظ عن جميع حقوقهم للمجموع، على أن هذا النزول لا يفقد الأفراد حرياتهم وحقوقهم نهائياً لأنهم سيستعيضون عن حرياتهم وحقوقهم الطبيعية التي نزلوا عنها بحريات وحقوق مدنية تقرها لهم الجماعة المدنية التي أقاموها، بل إن وجود هذه الجماعة يفترض هذه الحقوق والحريات المدنية لأنها ما قامت الا لحمايتها ويدلل روسو على وجهة نظره بالطريقة الآتية: (حيث أن النزول الكلي هو متساوي لجميع الأفراد وبالتالي تبقى المساواة الطبيعية بين الافراد قائمة وما دامت المساواة موجودة فستكون الحرية كذلك لأنه لن يتعدى أحد على الآخر دون أن يسيء في ذلك الوقت نفسه الى المجموع، أي أن الأفراد ما داموا متساوون فيما بينهم فحالتهم جميعاً واحدة ومن ثم تكون الاساءة لأحدهم إساءة إلى كل واحد منهم فالفرد إذ يضع قواه وحقوقه في يد المجموع يسترد بوصفه عضواً في الجماعة وجزاء لا يتجزأ من حقوقها ومن ثم تكون المساواة والحرية)²⁹.

وعموم القول فان العقد الاجتماعي برأي روسو هو أداة إرادية تنازل به الأفراد عن حريتهم الطبيعية وأذابوا إرادتهم الفردية في إرادة عامة مشتركة، وهذه الإرادة العامة هي السلطة صاحبة السيادة ، والسيادة التي تتكون من هذا التعاقد يكون لكل فرد نصيب فيها مساوي لنصيب الآخر وهذا الجزء الذي يخصه من السيادة لا يمكن انتزاعه منه وتتولى السلطة صاحبة السيادة حماية هذه الحقوق ، والسيادة لا تتجزأ ولا

²⁹ - انظر، روسو، العقد الاجتماعي، ص 26 .

توكل ولا تنتقل ولا يتصرف بها، وتقبل التفويض أو الإنابة لأن السيادة ليست جزءا من العقد بل هي وكيلة تابعة للإرادة العامة وأنها لا تستطيع أبداً التنازل عن ذاتها ، وان السلطة يمكن أن تنقل أما الإرادة فلا. وهنا يكمن جوهر التعايش في توحيد الإرادة، وهي صاحبة السلطة (إرادة الكل) وبإمكانها نقل السلطة متى شاءت لمن يكفل حماية المجتمع وحقوقه.

كان روسو يحلم بجمهورية شعبية أو هيئة سياسية يطلق عليها أعضاؤها اسم دولة يستطيع كل فرد فيها أن يشعر بأنها جمهوريته، ودولة يشعر كل فرد بأنه عضو مساهم فيها .

قال إن هدف كل نظام اجتماعي وسياسي هو حفظ حقوق كل فرد، وإن الشعب وحده هو صاحب السيادة. وكان يهدف إلى النظام الجمهوري³⁰.

وانتقد روسو حكومات زمنه لمنافاتها للطبيعة، ويقوم مذهبه على كون الإنسان صالحاً بطبيعته، محباً للعدل والنظام، فأفسده المجتمع وجعله بائساً: (والحُكم سيئ؛ لأنه لا يساوي بين الناس، والتملك جائر؛ لأنه مُقْتَطَعٌ من المُلْك الشائع الذي يجب أن يكون خاصاً بالإنسانية وحدها، فيجب أن يرجع الناس إلى الطبيعة، وهناك يتفق الناس بعقد اجتماعي على إقامة مجتمع يرضى به الجميع، فيقيمون بذلك حكومة تمنح الجميع ذات الحقوق، فتقوم سيادة الشعب مقام سيادة المَلِك، ويتساوى فيها الناس وتُنظَّم الثروة والتربية والديانة).³¹

ولم يعالج روسو نظم الدول الموجودة، خلافاً لما صنع مونتسكيو وفولتير، فبينما كان مونتسكيو وفولتير، اللذان هما من أبناء الطبقة العليا، يقتصران على المطالبة بالإصلاح السياسي والديني، وتلم شوكة الاستبداد، كان ابن الشعب روسو، الذي قضى شاباً قاسياً، ينتهي بآلامه إلى ضرورة تجديد الدولة والمجتمع تجديداً كلياً³².

الحرية: خير ما يصنع الشعبُ أن يخلع النير عنه عندما يستطيع صنع هذا؛ وذلك لأنه باسترداده حريته لذات الحق الذي نزعته به منه إما أن يكون معذوراً باستردادها، وإما أن يكون من نزعوها منه غير معذورين في ذلك، غير أن النظام الاجتماعي حق مقدس يصلح قاعدة لجميع الحقوق الأخرى، ومع ذلك فإن هذا الحق لا يصدر عن الطبيعة مطلقاً، وهو، إذن، قائم على عهود، والموضوع هو أن تُعرَف هذه العهود³³.

³⁰ - روسو ، العقد الاجتماعي، ص15.

³¹ - المرجع السابق ص 15.

³² - المرجع السابق، ص18.

³³ - روسو، ص 24.

المشاركة السياسية : ضرورة فهم المواطن لما يجري أثناء الانتخابات حتى يعرف لمن يصوت، كما قال جان جاك روسو: يكفي ما لي من حق التصويت، وأراني سعيدًا عندما أنعم النظر في الحكومات فأجد أسبابًا جديدة أحب بها ما هو خاص ببلدي منها³⁴.

ولا تنفع الناس قوة الظلم بل ينفعهم قوة الحق: لا يكون القوي قويًا دائمًا حتى يحول قوته إلى حق وطاعته إلى واجب³⁵. وهذا ما جاء به رسول الله في المدينة ليُعَلِّم الناس أن يرتبطوا فيما بينهم بالمبادئ وليس بالأشخاص.

بما أنه ليس لإنسان سلطان طبيعي على مثله، وبما أن القوة لا توجب أي حق، فإن العهود تظل أساسًا لكل سلطان شرعي بين الناس³⁶.

الميثاق الاجتماعي، إذن، بأن يضع كل واحد منا شخصه وجميع قوته شركة تحت إدارة الإرادة العامة، وهي ونحن نتلقى — كهيئة — كل عضو كجزء خفي من المجموع³⁷.

هذا يماثل العهد المدني في وثيقة المدينة: المسلمون أمة واحدة.....

وإذا ما تم اجتماع هذا الجمهور كهيئة على هذا الوجه لم يمكن إساءة أحد الأعضاء من غير إيذاء الهيئة، وإساءة الهيئة من غير إيذاء الأعضاء، وهكذا فإن الواجب والمصلحة يُلزمان الفريقين المتعاقدين بالتساوي، على التعاون مبادلة، فعلى الناس أنفسهم أن يجمعوا جميع المنافع المتصلة بتلك الناحية تحت هذه الناحية المزدوجة³⁸.

أدى الانتقال من الحال الطبيعية إلى الحال المدنية إلى تغيير في الإنسان جدير بالذكر كثيرًا؛ وذلك بإحلاله العدل محل الغريزة في سيره، وبمنحه أفعاله أدبًا كان يُعَوِّزُها سابقًا، ولأن إطاعة القانون الذي نُلِزِمُ به أنفسنا هي الحرية³⁹.

البحث عن المصلحة المشتركة: إن أولى المبادئ المقررة وأهمها هو كون الإرادة العامة وحدها هي التي يمكنها أن توجه قوى الدولة وفق هدف نظامها الذي هو الخير العام، وذلك إذا كان تعارض المصالح الخاصة قد جعل قيام المجتمعات أمرًا ضروريًا فإن توافق هذه المصالح نفسها هو الذي جعل ذلك ممكنًا،

³⁴ - روسو ، ص22.

³⁵ - روسو، ص30.

³⁶ - روسو، ص32.

³⁷ - روسو، ص 39.

³⁸ - روسو، ص43.

³⁹ - روسو، ص 44 .

وهذا ما هو مشترك في هذه المصالح المختلفة التي تتألف الرابطة الاجتماعية منها، وإذا لم توجد نقطة تتوافق فيها جميع المصالح لم يمكن قيام أي مجتمع كان، والواقع أنه يجب أن يدار المجتمع على أساس هذه المصلحة المشتركة فقط⁴⁰.

قال مكيافيلي: حقًا يوجد من الاختلافات ما هو ضار بالجمهورية وما هو نافع لها، فما يثير المذاهب والأحزاب منها ضار، وما لا يلزم المذاهب والأحزاب منها نافع، ولذا لا يستطيع مؤسس إحدى الجمهوريات أن يحول دون وجود عداوات، وإنما يجب عليه أن يحول دون تحولها إلى مذاهب على الأقل⁴¹.

وبما أن جميع المواطنين متساوون بالعقد الاجتماعي فإن ما يجب أن يصنعه الجميع يمكن الجميع أن يأمر به، ولكن ليس لأحد حق أن يطالب بأن يصنع آخر ما لا يصنعه بنفسه... والواقع أن هذا الحق، الضروري لمنح الهيئة السياسية حياة وحركة، هو الذي ينعم السيد به على الأمير بإقامة الحكومة. وزعم كثيرون أن هذا العمل الإنشائي كان عقدًا بين الشعب والرؤساء الذين يقيمهم على نفسه، عقدًا بين الفريقين ينطوي على شروط يُلزمُ أحدهما نفسه بالقيادة وفقها، ويلزم الآخر نفسه بالطاعة وفقها.⁴²

إن الذي يجعل الإرادة عامة هو المصلحة المشتركة التي تؤلف بين المصوتين أكثر من أن يكونه عددهم؛ وذلك لأن كل واحد في هذا النظام يخضع، بحكم الضرورة، للأحوال التي يفرضها على الآخرين، وهذا الاتفاق العجيب بين المصلحة والعدالة هو الذي يمنح المشورات المشتركة صبغة إنصاف، وكما أن الطبيعة تمنح كل إنسان سلطة مطلقة على جميع أعضائه، يمنح الميثاق الاجتماعي الهيئة السياسية سلطانًا مطلقًا على جميع أعضائها أيضًا، وهذه السلطة نفسها، وهي التي توجهها الإرادة العامة، تحمل اسم السيادة كما قلت.

وذلك أن الميثاق الاجتماعي يجعل بين المواطنين من المساواة ما يُلزمون أنفسهم معه بذات الشروط وما يجب أن يتمتعوا معه بذات الحقوق⁴³ هذا يثبت كون المساواة في الحقوق، وكون فكرة العدل التي تنشأ عن هذه المساواة، يشتق من إثارة كل واحد نفسه.

وهو ما يضمن التعايش في المجتمع المدني الذي يقصد به التنوع الثقافي والعرقي حتى والتعامل الاقتصادي، فالمجتمع المدني عند روسو: هو العلاقات الاجتماعية والمبادلات الاقتصادية بين الناس،

⁴⁰ - روسو، ص52.

⁴¹ - نيكولو ميكافيلي، تاريخ فلورنسة، جزء 1215، ص7، ص56، في العقد الاجتماعي، لجان جاك روسو، ص52.

⁴² - روسو، مرجع سابق، ص129.

⁴³ - روسو، ص59.

وهو مجموع يتضمن الكثرة والتمايز والتعدد، بل وحتى التناقض والتمايز أحياناً⁴⁴. وهذا المعنى الذي وضحه الرسول صلى الله عليه وسلم في وثيقة المدينة.

خاتمة

عاش الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) قبل الثورة الفرنسية بمدة ورأى حال المجتمع الذي عانى من الاستبداد والقهر، فألف كتاباً ضمّن فيه رؤيته للخروج من هذه الحال دعاه العقد الاجتماعي، فيه دعوة الناس للاجتماع والاتفاق فيما بينهم على صيغ وقواعد يرونها تصب في مصلحتهم جميعاً وتحقق مصلحتهم كمجتمع (وهذا مايسمى الاطار المرجعي) ، وتأسيس دولة تحميهم وتقوم بحل الخلاف بينهم و تسعى لتحقيق أهدافهم، وروسو يفضل هذا الشكل من الاتفاق على الحياة الفطرية رغم ما يسود تلك الحياة من حرية ومساواة، ويرى روسو أن على الأفراد في العقد الاجتماعي أن ينزلون كلية (يتخلون) ودون تحفظ عن جميع حقوقهم للمجموع، على أن هذا النزول لا يفقد الأفراد حرياتهم وحقوقهم نهائياً لأنهم سيستعيضون عن حرياتهم وحقوقهم الطبيعية التي نزلوا عنها بحريات وحقوق مدنية تقررها لهم الجماعة المدنية التي أقاموا.

والتركيز على النقاط المشتركة فيما بينهم .لكن للجهة التي تتولى الحكم سلطة فقط لتنفيذ ما يهم الجميع، وليس لها السيادة،السيادة للمجموع .

وفي الاسلام في البيئة العربية بثقافتها وبنيتها الاجتماعية التي تميزها عن فرنسا وبلاد أخرى عندنا نموذج للخروج من حالة التناحر والظلم أيضاً وينهي وجود طبقات اجتماعية؛ وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قدّم المدينة المنورة من مكة مهاجراً، وضع أساساً اتفاقياً يصب في مصلحة الجماعات المتنوعة، فيحافظ على خصوصيتها ويدعوها جميعاً للوحدة في اطار جامع يحقق النفع لجميعها، هذا بالنسبة لنا كمسلمين يعتبر (نموذج مثالي) اذ أنه قام هذا الاتفاق بدولة فيها تنوع عرقي وديني واجتماعي ونجح في تأسيس دولة قوية متينة تحمي كل أفرادها وتحقق أهدافهم .

هذين الصيغتين (النموذج المثالي، والاطار المرجعي) هما ما حاولت الدراسة الاشارة اليهما كمنهجية لإعادة البناء الاجتماعي بعد الثورات على الاستبداد، فلا بد من التعايش بين كل الفئات ، فهذا هو السبيل والتجربة التاريخية التي أثبتت نجاحها ، والآن تعيد الظروف نفسها بشكل مختلف قليلاً.

ونشير إلى أن روسو في كتابه العقد الاجتماعي أشار بشدة واعجاب لما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتبر الاسلام دين قادر على بناء مجتمع يحتفظ بتنوعه ، بينما سلطة الكنيسة في زمنه كانت

⁴⁴ - في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي ، جان جاك روسو، ترجمة عبد العزيز لبيب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ،

عائقاً للدين من أن يكون بانياً للمجتمع بل العكس هدمت المجتمع بتفويضها السلطة للمستبدين. ففي الإسلام ترك اختيار الحاكم للشعب هو يختار من يمثله فكراً ويقوده لتحقيق أهدافه، وترك شكل السلطة أيضاً للشعب يختار ما يناسب ظروفه، والأهم هو سلامة المجتمع واقامة العدل وتحقيق الهدف.

المراجع

- جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ترجمة عادل زعيتير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013.
- الفارابي : المدينة الفاضلة ، إعداد د. علي عبد الواحد وافي ، 1393 هـ / 1973م ، ملتزم الطبع والنشر دار الكتب للطبع والنشر.
- ما هو التعايش، كومان ريسنكة ، ترجمة: ذاكر آل حبيل، شبكة فلسطين للحوار :
<https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=847640>
- محمود عثمان رزق، دستور المدينة أول دستور مكتوب أسس دولة في التاريخ، مقال صحيفة سودان نايل الالكترونية السودانية، نشر بتاريخ 23 تموز 2012.
- Michael Licker, The constitution of medina Muhammad's first legal document, the Darwin press, Inc, Princeton, new jersey,2004. S 3.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، 2012.
- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، ط2، (مصر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1375هـ/1955م)، ج1.
- حميد بن مخلد بن زنجويه، الأموال، ط1، ج2، مركز الملك فيصل، السعودية، 1986م.
- أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، ط3، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1424هـ/2003م.
- أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ط6 المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1415هـ/1994م.
- د.علي ليلي، تفاعل الحضارات، جامعة عين شمس، القاهرة، 2006، ص74.
- د.محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ، دمشق، دار الفكر، 1991.

- البخاري

- توماس أرنولد، الدعوة إلى الاسلام، ترجمة: حسن ابراهيم حسن وآخرون، القاهرة، مكتبة الهضبة المصرية، 1970، ص98-99

- تفسير الطبري، سورة الممتحنة، آية 8.

- ما هو التعايش، كومار ريسنكة، ترجمة ذاكر آل حبيب، شبكة فلسطين للحوار:

<https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=847640>

- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة عبد العزيز لبيب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ، 2011، ص35